عناية الاستشراق بدراسة القرآن الكريم

للدكتور / عبد العلى عبد الحميد الأزهرى

ازدادت عنـــاية المستشرقين الغربيين فى الآونة الأخيرة بدراسة القرآن الكريم وهم يصدرون فى ذلك عن فكرة ثابتـــة لديهم ورثوها عن آبائهم فى الاستشراق وأن هذا الكتاب الذى يزعم المسلمون أنه منزل من عند الله — لفظا ومعنا — على محمد النبى ﷺ لا يعدو إلا أن يكون كتابا كأى كتاب آخر يؤلفـــه واحد من البشر ، فيجب أن يخضع لموازين النقد الأدبى ومناهج دراسة النصوص ، فتدرس نصوصه — بموضوعية بحتة — فى ضوء الحقائق التأريخية التى حدثت فى زمان تدوينه ، والظروف والأوضاع الاجتماعية التى كانت تسود المجتمع فى ذلك الوقت ، والتطورات الكبيرة التى كانت تشهـــدها شبه الجزيرة العربية . وهذا المنهج النقدى قـــد طبق على العهدين : القديم والجديد ، فكانت النتيجة تجريد الكتاب المقدس من أية قيمة دينية روحية ، فربما نصل إلى نفس النتيجة إذا قمنا بتطبيقه على كتاب المسلمين ، هذه هى الفكرة الأساسية .

والملاحظ أن كثيرا منهم يزعمون أن هدفهم بتلك الدراسة هو خدمـــة القرآن الكريم حيث إنهم يريدون وضع الأشياء فى محلها ، وتثبيت مكانة الكتاب العزيز بين الكتب المؤلفة وهم فى ذلك صادرون عن نيـــة صادقة وموضوعية بحتة ، ولكن نتائج بحوثهم لا تصدق مزاعمهم ، فهم دائما يركزون على أن

محمدا — ﷺ — استقى مصادر القرآن من ما وصل إليه من أقاصيص وأخبار الأمم الماضية ومعتقداتهم من أخبار اليهود ورهبان النصارى .

والاهتمام الزائد بدراسة القرآن له دوافع سياسية واجتماعيـة . فقد أدت التطورات التى حدثت بعد الحرب العالمية إلى تواجد عدد كبير من المسلمين فى الدول الأوربيـة ، الذين نزحوا إليها من بلادهم لسوء الأوضاع السياسية والاقتصادية ، وتفرد الحكام الجائرين بالسلطة المطلقـة ، يسومون الشعوب سوء العذاب ، فلجأ الكثير منهم إلى أوربا . وهم يضرون بالاحتفاظ بهويتهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعيـة ويرفضون الاندماج فى المجتمعات الجديدة التى يعيشون فيهـا . والاندماج — حسب المفهوم الغربى — يعنى الذوبان فى المجتمع الغربى بحيث لايبقى للهاجرين من تراثهم وعاداتهم ودينهم إلا ما بقى عند الغربيين من دياناتهم . فيصبح الجميع علمانيين فى سلوكهم وتصرفاتهم ويضعون الدين جانبا يرجعون إليه عند الأزمات النفسية أو الاجتماعية . ولكن المسلمين رفضوا هذا الاندماج .

وكلما وقعوا تحت ضغط من أى جهة ازدادوا تمسكا بتقاليدهم ، والتفوا حول كتابهم المقدس ، فالقرآن هو مصدر وحدتهم وقوتهم . فمهما تعـددت الأحزاب والجماعات الاسلامية ومهما اشتدت الخلافات وتفاقمت الصراعات بينها فإنها كلها ترجع إلى هذا الكتاب على أنه كلام ربهم وأساس دينهم . لم يفت المسئولين ذلك و بدأوا يفكرون فى وسائل يمكن بها زعزعة ثقتهم بالكتاب العزيز ، وإيجاد شكوك فى صحته ، وصحة ما تحيط من روايات حول نزوله وتدوينه وقراءاته وتفاسيره فيمكن جرهم لقبول القيم والتقاليـد الغربية ، وتذويبهم فى المجتمع الأوربى .

وتصدى الاستشراق لتنفيذ هذه الخطة المزعومة وبدأت تصدر كتب عن القرآن : عن مصادره ، وأسلوبه وتطوره ، ولغته ولهجاته ، ومراحل نزوله ، وتأريخه وتدوينه وقراءاته واختلاف المصاحف ، والاتجاهات التفسيرية وتأثيرها فى ضبط النص ، كما عقدت مؤتمرات وندوات تجمع بين العلماء من مختلف الديار يتناقشون حول الموضوعات الخاصة بالنواصى المذكورة .

والملاحظ أن موقف العلماء المسلمين من هذا النشاط الاستشراقى المتزايد كان ولا يزال سلبيا فلم تظهر من جانبهم جهود إيجابية لمقاومة أعمال المستشرقين ، ولا أعنى بالمقاومة الرد على الكتب التى تصدر فحسب ، بل أعنى إصدار كتب ونشر بحوث ودراسات علمية حول القرآن الكريم باللغات الأوربية وبالأسلوب الذى يفهمه سكان الغرب ، كما ينبغى الاشتراك الفعلى فى المؤتمرات والندوات العلمية التى تعقد من حين لآخر ، والقيام بتقديم بحوث علمية مبنية على الأسس العلمية السليمة التى تفصل بين الحق والباطل ، وهذه ناحية قد أشرت إليها من قبل ونعيت على المسلمين الإهمال فيها .

والواقع ان الجامعات الاسلامية والعربية لا تقوم بواجبها فى تخريج علماء متخصصين وباحثين علميين على المستوى المطلوب ، فمعظم الدراسات والبحوث التى يقوم بها طلبة الدراسات العليا فى أقسام الدراسات الاسلامية تدور حول تحقيق نصوص كتب صدرت منها طبعات عديدة أو تخريج أحاديث من الكتب المتداولة ، وهذا جانب لايمكن التقليل من قيمته ، ولكن التزيد فيه على حساب البحوث المبنية على التفكير البناء والابتكار والأصالة آفة علمية منيت بها أقسام الدراسات العليا فى الجامعات الاسلامية .

ويجب أن نتذكر أننا نعيش فى عصر زالت فيه الحدود ، وأصبح جميع

سكان الأرض يعيشون فى مجتمع صغير تحتك فيه الجاليات المختلفة ، وتتزاحم فيه المصالح ، وتتعارض القيم ، وتتصارع فيه العادات والتقاليد . والغلبة تكون لمن استطاع إثبات فضل ديانته ومعتقداته وتقاليده وشعائره الدينية على ما لدى الآخرين ، وذلك لايمكن بالانعزال والابتعاد عن المجتمع بل بالخوض فى نشاطه والاشتراك فى أعماله بعد التزود بالوسائل اللازمة .

نحن لا نستطيع ان نغمض العيون عما يجرى فى العالم هذه طريقة الجبناء والمهزومين عقليا وفكريا ، والانعزالية لا تصلح لمجتمعنا المعاصر بل يجب الخوض فى كل مجال والمزاحمة مع الباحثين فى كل ميدان وبهذا نستطيع ان نقوم بواجبنا نحو ديننا ، ونساهم فى تصحيح المفاهيم و وضع الأشياء فى أماكنها المناسبة ، كما نستطيع مساعدة الملايين من المسلمين الذين يعيشون تحت ضغوط متنوعة فى دول أوربية فى تحصينهم ضد الحملات الموجهة إليهم، وحمايتهم من محاولات التذويب والتنصير .

وبعد ، فقد عقد مركز دراسات الشرق الأدنى والأوسط فى مدرسة الدراسات الافريقية والشرقية التابعة لجامعة لندن ندوة علمية حول القرآن عبر القرون استمرت يومين ٢١—٢٢ / مارس ١٩٩٠ م ، اشترك فيها عدد من المستشرقين والمستغربين والمسلمين الذين عرفوا بالتخصص فى الدراسات القرآنية ، وكان من بينهم ١٣ مستشرقا و ٨ من المسلمين نصفهم من المستغربين الذين نبذوا تعاليم دينهم وراء ظهورهم واصطبغوا بالصبغة الأوربية . درسوا فى أوربا وتتلمذوا على أيدى المستشرقين وتلقوا منهم مناهجهم وأفكارهم ، ففقدوا هويتهم ولبسوا لباس الأوربى وتثقفوا بالثقافة الأوربية التى ملكتهم ، وفرضت نفسها عليهم .

وكانت البحوث المقدمة فى الندوة مقسمة فى المحاور الآتية :

١ — اللغة والأسلوب والصور البيانية : وكان من ضمن المتحدثين فى هذا المجال الدكتور محمد عبد الحليم الأستاذ فى مدرسة الدراسات الافريقية والشرقية، الذى صرح بأن أصوب منهج لدراسة القرآن وتفسيره هو الاستفادة بالقرآن نفسه ، فالقرآن يفسر بعضه بعضا ، كما قال القدماء ، فسياق الآيات يعين على فهم المعنى المراد ، وجمع الآيات الخاصة بموضوع واحد يساعد فى توضيح الفكرة، وقد عرض نموذجا عمليا لهذا المنهج فى دراسته لسورة الرحمن وقام بتفنيد مزاعم المستشرقين عن هذه السورة حيث زعم أحدهم إنهـا محاكاة لسورة من الزبور فى العهد القديم .

وقال غيره : إن فيها أخطاء نحوية أو أن بعض الآيات كانت ألحقت بالسورة فى فترة لاحقة ، وجهود الدكتور جديرة بالتقـدير ، و دراسة القرآن تحتاج إلى مثل هذه الجهود فى اللغات الأوربية .

وتحدث فى نفس الحلقة ثلاثة من المستشرقين عن لغة القرآن وأسلوبه و ادعى أحدهم ان لغة القرآن توحى ان رسالة محمد - ﷺ - كانت خاصة للعرب ولم تكن رسالة عالمية ، وفسر كلمة « الناس » الواردة فى القرآن بسكان الجزيرة العربية .

٢ — القرآن بالمقارنة مع الكتب السماوية الأخرى : تحدث حولـه ثلاثة من العلماء أحدهم مسلم مستغرب يريد أن تجرى دراسات حول القرآن كمـا أجريت حول الكتب الدينية الأخرى ، وتخضع نصوصه لمعايير النقد الأدبى .

٣ — التفسير الموضوعى للقرآن : قدم ثلاثة من المشتركين بحوثهم حول هذا الموضوع أحدهم باحث مسلم من جنوب افريقيا تناول تفسير كلمة « الفتنة »

فى تفسير ابن جرير الطبرى ، وحاول البرهنة على أن الطبرى فى توضيحه لمدلولات الكلمة استوحى من الظروف والأوضاع السائدة فى مجتمع بغداد وقت كتابة التفسير ، ولكن الباحث لم يستطع استيعاب الموضوع .

كما تكلم أحد الباحثين اليهود من جامعة تل ابيب حول كلمة « المثانى » الواردة فى القرآن وذكر التفاسير الواردة لها فى كتب التفسير . وهى :

ا — الفاتحة حيث انها تشتمل على سبع آيات .

ب — السبع الطوال .

ج — الحواميم السبع .

د — السور الصغيرة التى تتكون من آيات دون المائة ولكنها أكبر من سور المفصل .

ه — سبع أصناف القرآن .

و — أسباع القرآن .

ومال إلى ترجيح الوجهين الأخيرين على أساس ان تفسيرها بسور معينة لا توافق الواقع التاريخى حيث اننا لا نملك دليلا على أنها كانت تكونت كسور عند نزول آية المثانى .

٤ — التفسير المذهبى : وتركز الكلام فيه حول منهج الشيعة فى التفسير ومحاولتهم إرجاع أصول نحلتهم إلى القرآن تحدث فيه ثلاثة أحدهم مسلم عربى جاء من أمريكا وتحدث عن المنهج الصوفى والشيعى فى التفسير وحاول ربط أحدهما بالآخر .

٥ — القرآن وظواهر الحياة العامة : تحدث حوله ثلاثة . أحدهم مستشرق خبيث كتب من قبل كتابا عن تدوين القرآن حاول فيه التشكيك فى صحة القرآن

وتناول فى بحثه هذا حد الرجم فى الشريعة وقرر أن الرجم لم يكن يوجد فى عصر النبى ﷺ ، وإنما اخترعه الفقهاء لتفسير آية فى سورة المائدة .

٦ — القرآن والاتجاهات الحديثة فى التفسير : تحـدث حوله ثلاثة من المسلمين تناول أحدهم مساهمة عزةدروزة فى التفسير ، وقام الآخر بشرح فكرة الوحدة الموضوعية للسورة ، وكانت منـاقشته تدور حول فكرة « نظم القرآن » التى قدمها حميد الدين الفراهى فى الهند ، وقام بتطبيقها تلميـذه أمين أحسن الاصلاحى فى تفسيره « تدبر القرآن » باللغة الأردية .

أما الثـالث : فقـد عرض منهج السيد أبى الأعلى المودودى والسيد عبد الماجد دريا آبادى فى تفسيريهما ومحاولتهما الرجوع إلى الكتاب المقدس فى تفسير آيات القرآن .

٧ — القرآن والفكر الحديث : وكان من المقرر أن يتحدث عنه الدكتور محمد اركون وهو باحث جزائرى يميـل إلى أفكار المستشرقين ويريد دراسة القرآن حسب المنهج الحديث كما سبقت إليه الاشارة من قبل . ولكنه لم يحضر .

* * *